الليبرالية الجديدة و العولمة والثقافة

"تحليل الخطاب التاريخي للأنا على الأخر"

د. محمد المذكوري المعطاوي
أستاذ اللسانيات Linguistics
جامعة أوتونما Autonomous University
مدريد – أسبانيا
el-madkouri@uam.es

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
محمد المذكوري المعطاوي ، الليبرالية الجديدة والعولمة والثقافة: تحليل الخطاب التاريخي للأنا على الأخر.- دورية كان التاريخية.- العدد الحادي عشر ؛ مارس ٢٠١١. ص ٨ – ١٦. (www.historicalkan.co.nr)

الليبرالية والتأسيس للمفاهيم الأيديولوجية

الليبرالية تعرف بأنها أيديولوجية الحرية (حسب تعريف ريفيرو كارو)، وبعبارة أخرى الإنسان الليبرالي من الناحية النظرية هو كل من يضع الحرية فوق أي اعتبار أخر. ومع ذلك فمن ناحية الممارسة الاجتماعية والسياسية فالليبرالي يحتاج دائما لشيء لكي يتحرر منه ، أي انه بحاجة للتمرد – من اجل التحرر- من أي ممارسات قسرية قد تكون سياسية أو اجتماعية أو أخلاقية أو دينية. هذا التمرد من اجل الحرية يختلف عن الفكرة المطروحة من قبل الفكر الفوضوي. فالليبراليين ينطلقون من سيادة القانون ، وهم يقولون " نحن أحرار إذا خضعنا جميعا بالتساوي لقوانين متفق عليها" ، وعليه فهم يعتقدون أن انعدام القانون سيؤدي إلى الظلم وبالتالي سيادة قانون الغاب- البقاء للأقوى-.

اكتسبت الليبرالية في العالم الغربي منذ القرن التاسع عشر طابعا جمهوريا ، من وجهة النظر السياسية ، فالنظام الملكي المطلق في الكثير من المملكات الغربية كان فوق القانون ، انطلاقاً من أن البشر ليسو متساوين أمام القانون. الاستثناء الوحيد في هذا المنهج كانت الولايات المتحدة الأمريكي التي كانت تسير بنظام جمهوري ، ذو سجل تاريخي خاص فيما يتعلق بالحريات الفردية والدينية والعرقية ، ولكنها في النهاية كانت جمهورية بالفعل ، فالجمهوريين الأمريكيين في الكثير من تصرفاتهم يجسدون المبادئ المحافظة وكذلك الحماية التي تميز الأنظمة الملكية الأوروبية. فالولايات المتحدة ، على الرغم من هامش الحرية المعقول ، تعتبر إحدى الجمهوريات القليلة التي لا توجد فيها أحزاب شيوعية بل أن الشيوعيين تعرضوا في هذا البلد لملاحقات مستمرة خلال فترة الكفاح الاجتماعي من اجل الحريات والاستقلال ، وفي الولايات المتحدة خلال هذه الفترة بالذات كانت توضع العراقيل الديمقراطية أمام مطالب تحريم الاعتداء على الأفراد.

خلال الفترة (١٨٩٠ -١٩٥٢) حاول سبعة رؤساء أمريكيين حمل الكونغرس على تحريم عمليات الاعتداء والقتل التي كانت تستخدم كوسائل للعقاب خارج الأطر القانونية بشكل خاص بحق الزنوج في جنوب البلاد ، واستجابة لهذه المطالب تدارس الكونجرس عشرات الاقتراحات القانونية ثلاث منها تمت الموافقة عليها في البرلمان خلال الفترة (١٩٢٠ – ١٩٤٠) ولكنها أسقطت عند مرورها في مجلس الشيوخ نظرا للعراقيل التي وضعت من قبل الأعضاء الممثلين للولايات الجنوبية. ويستعد مجلس الشيوخ لتقديم الاعتذار بالأمس لهذا الفشل (كالبو ٢٠٠٥). وفي هذه الإطار لا بد من الافتراض بان الليبرالية لم تصل إلى كل الدول بنفس الطريقة ، ولم تستمر فيها على نفس المنوال كما لم تصل إلى المواطنين في نفس الدرجة.

استخدم لفظ ليبرالي لأول مرة في أسبانيا في مطلع القرن التاسع عشر في محاولة الهدف منها الترغيب بالملكية الدستورية ، التي كانت تعتمد على دستور مماثل للدستور الإنجليزي. سلطة التحكم بالأفراد كانت تمثل الشيء القديم ، أما الشيء الجديد بالكامل- أنذالك - فهو احترام الحريات الفردية (أو ما يسمى " بالحقوق الإنسانية ") (ريفيرو كارو).

الليبرالية الاقتصادية تتميز بعدم وضع الدولة للعراقيل أو الحدود على الإنتاج ، وعلى التوزيع أو الاستهلاك بالنسبة لأي نوع من السلع أو الخدمات. محاربة أو التمرد على أي شكل من أشكال العراقيل

الاقتصادية يمثل أهم ميزة فكرية أو الأيديولوجية لليبرالية الاقتصادية ، هذا النضال يتضح بجلاء ليس فقط من خلال الخطاب الفكري بل وبإبراز الحاجة للكفاح التحرري للفرد والمطالبة بالدفاع عن المبادرات الذاتية أو الجماعية باسم المنافسة. هنا يفرض نفسه هدفا آخر من أهداف النضال من الحرية يتمثل في تحرير عوامل الثروة والأسواق والتخلي عن مؤسسات الدولة الاقتصادية. بحجة أن الاقتصاد يجب أن ينطلق بذاته وليس من خلال التخطيط. ومع ذلك فان هذه المطالب الليبرالية المفرطة واجهت صعوبات خلال نهاية القرن التاسع عشر نتيجة لانتشار الأيديولوجية الماركسية ، كما أن تأسيس الاتحاد السوفيتي شكل عقبة رئيسية في وجه الليبرالية خلال طوال القرن العشرين تقريبا لما مثله هذا النظام من فكر مضاد لليبرالية ساعد في المرحلة الأولى على التأكيد على دور الفرد في مواجهه رأس المال. ولهذا السبب وعلى الرغم من القدرة الدعائية والاطروحات الفكرية الغربية فقدت ظهرت في أوروبا ولا تزال قائمة من الأفكار تدعو إلى نوع ما من التدخل الحكومي في التحكم بعوامل الاقتصاد ، وتعززت الحاجة للتخطيط املا في خدمة ما يسمى بالاستقرار أو الرخاء الاجتماعي. أن هذه التدخلات والتخطيطات لا ترقى الى تلك التي طبقت في الاتحاد السوفيتي ولكنها تشكل نوعا من التدخل تم بفضل كفاح الحركات الاجتماعية والنقابات باعتبارها جزء من القوى المتفاعلة داخل المجتمع.

الليبرالية واختلاف المفاهيم اللغوية

هذا هو الشيء المهم بالنسبة لي ، فالليبرالية لا تُفهم بنفس الطريقة في كل مكان ولا يترتب عليها نفس المضاعفات. إن هذه الكلمة(الليبرالية) تكتسب معزاها الحقيقي فقط عندما تقرن بمضادها الفكري والظرفي ، ليس من الممكن فهم الليبرالية إلا في إطار اجتماعي وسياسي محدد عندما تظهر كردة فعل على ظروف تتطلب التخلص آو التحرر منها. وعليه فان الظرف المحدد هو الذي يبين الند الجدلي. فكلمة الليبرالية على النطاق السياسي تتأثر طبقا لما ذكره جوزيفا اريغي Josefa Arregui في مقال نشر في صحيفة الموندو بتاريخ ٣ أغسس ٢٠٠٥ تحت عنوان نواقص القومية: حيث قال "نحن نعلم بان التضخم المالي يؤدي إلى انتقاص قيمة العملة ، فقد يري البعض بأنه يملك مبلغا ما كبيرا أو صغيراً أو متوسطاً من المال ولكن الواقع أن التضخم ابتلع جزء من قيمة هذا المبلغ. التضخم لا يقتصر على امتصاص جزء من قيمة المبالغ المالية ، بل أن هذه الظاهرة تمتد إلى جوانب أخري هامة من الحياة كاللغة على سبيل المثال. وإذا كان من المؤكد أن كل أشكال التعامل اللغوي تعاني من نسبة عالية من التضخم فان لغة التعامل السياسي هي الأكثر عرضة لهذه الظاهرة.

الليبرالية كمعارضة

الليبرالي في أسبانيا ليس نفس الليبرالي في إيطاليا مثلا ولا كالليبرالي الإنجليزي ، على الرغم من انهم ليبراليون لكن كل منهم له نظرته الخاصة لليبرالية حسب الظروف المحيطة به وحسب المشاكل التي يريد التحرر منها ، وعليه فان كلمة الليبرالية هي من أقل الكلمات تحديدا واكثرها مرونة واتساعا ، سواء في المصطلحات السياسية ام الاقتصادية فهي تعبر عن فلسفة سياسية تقوم على قاعدة الحرية الفردية ، وتحتمل كذلك سلسلة من المفاهيم الفكرية لعدد من الأحزاب السياسية المختلفة في العالم الغربي ، كما تبين ملامح أسس وآليات الممارسات الاقتصادية (Bejarano).

ومع ذلك وعلى الرغم من أنها تمثل مفهوماً فلسفياً ، وحتى أيديولوجيا قابلا للتطبيق في ظروف مختلفة (كما سنشاهد في الفقرة التالية) ، هناك معزى ثابت لليبرالية وهو نفس مغزى الحرية وحرية الظرف القائم ، الذي يمكن اعتباره ظرفا تقليدا ومقيدا . وبجب أن لا ننسى بان مبدأ الليبرالية هو أولا وقبل كل شئ مبدءا اقتصاديا ، تشكل بشكل تدريجي وراح يكتسب بعده الحقيقي منذ القرن الثامن عشر بفصل مساهمات العديد من المفكرين الاقتصاديين الى ان اكتسب البعد الحقيقي من خلال صياغات Adam Smith: الفرد هو مصدر القيم الأخلاقية الذاتية ، عملية المتاجرة والمعاملات بيم الأفراد تتضمن الكثير من العوامل الكفيلة بتحقيق ليس فقط سعادة المجموعة ، بل والتغني بالحرية ، والسوق هو النظام التلقائي لتوزيع الثروة وللتبادل بين الأمم وهو لن يؤدي فقط إلى تراكم الثروة بواسطة التوزيع الدولي للعمل بل يساهم في الحد من التوترات السياسية والحروب ، وأخيراً فان السياسات العامة يجب أن تقتصر على أمور محدودة تعتبر مدعاة للقلق الجماعي ، كالحرية والأمن والعدل.. الخ (بيخارانو Bejarano).

من خلال هذه التعريف الذي ينطلق من تركيبات لغوية تحمل لمسات إيجابية يمكننا إعادة تركيب كل المفاهيم الأيديولوجية المنافسة لليبرالية ، والتي يمكن تحديها في ثلاثة مستويات:

- النطاق الأخلاقي: الفرد يعارض أخلاقيات موروثة ومستفحلة مقبولة بشكل عام ، من أجل تحرير نفسه. بوسعه أن يستحدث قيمه الذاتية -الخاصة به - وتكيف ما يحلو له من هذه القيم ، وعلى هذا الأساس فالليبرالية يمكنها أن تتعارض مع كل الأشكال والمنتهلات الأخلاقية المنتشرة في المجتمع وتلك السائدة في المؤسسات الدينية التقليدية.
- النطاق الاقتصادي: لا ، لأي تدخل من قبل الدولة أو تخطيطاتها ، نعم لاقتصاد تحكمه قيم منبثقة عن حرية التملك وإدارة واستخدام رؤوس الأموال. في المجال الدولي فان هذه النطاق معزز بمفهوم الأمن الدولي. فالتبادل بين البلدان والأمم يشكل ضمانة للثروة من خلال توزيع العمل كما انه يدفع باتجاه التواصل بين البلدان بما يترتب على ذلك من الحد من مصادر التوتر والحروب.
- النطاق السياسي: الدولة يقع عليها واجب القيام بدور المنظم والمشرف والضامن للأمن والعدل ومفهوم الحرية ذاته.

كل هذه المجالات ، التي تحتمل الانتقاد في جوانب معينة ، تعتبر في نهاية الأمر ضمانات ، وبالتحديد النطاق الأول والثالث ، للحرية وتمنع التعرض للأفراد والحيز الفكري. وتتضح اكثر إذا ما قورنت بالمقولة الشهيرة حول القيصر والرب ، متحدان او مرتبطان في حياة الفرد خلال مرحلة ما قبل الليبرالية وحتى في ظل الليبرالية ذاتها. وفي هذه الحالة فان تعزيز وتثبيت الحقوق الإنسانية ليس باعتبارها تنازلات بل لكونها حقوقا طبعيه ذاتية مضمونة ، تمثل نتيجة يعود الفضل فيها إلى حد كبير لليبرالية. وبناء على ذلك كله فان تعبير الليبرالية ، بما أضيف عليه من مغزى جديد (الليبرالية الجديدة) لم تعد مجرد مفهوم عقائدي بل باتت تمثل مبدأ فلسفيا – ثقافياً ، يترتب عليه أبعاد

جديدة تمس حياة الأفراد والمجتمعات. ومن بين الأصداء التي تترتب على ذلك نذكر على سبيل المثال المعايير التي تمس تكوين الهوية (كحدث) والأخرى (الهامشية). ومع ذلك فان مفهوم الليبرالية الجديد ليس معصوما عن الأخطاء مما يجعله قابل النقد.

عدم ثبوت القيم الأخلاقية: نظراً لكون الفرد مصدر القيم الأخلاقية. وان هناك صلة بين هذه القيم والمصالح الشخصية المرتبطة بالحيز الزمني وتصبح هذه القيم غير مستقرة وعرضة للاستبدال. وعليه فان المبدأ الأخلاقي مرتبط بزمن ومكان معين يتغير بتغير هذه العوامل الظرفية. من هنا تتولد الجدلية حول مسألة التحكم في الجنات الوراثية ومسألة الموت الرحيم.

أن تحرير رأس المال يؤدي إلى اختزال مفهوم الأفراد في بُعد واحد يتمثل في اندفاع الفرد اللامحدود نحو حرية الاستهلاك. فالتحرير المفرط لراس المال يستحوذ على شخصية الفرد ليصبح امتداداً فعليا لرأس المال. وعليه فان القيمة الاقتصادية لمؤسسة مالية مثلا تقاس بعدة معايير من بينها عدد الزبائن أي عدد الأفراد المستهلكين. كما أن إضفاء صفة الفردية والنسبية على القيم والمبادئ الأخلاقية ، يجعل من الوضع الاقتصادي للفرد وقدرته الشرائية من بين أهم واكثر القيم اعتبارا وتقديرا من الناحية الاجتماعية. وبذلك فان الأفراد والمجتمعات لا تضع حواجز أخلاقية سوى تلك التي تضعها الدولة التي تمارس دور الحكم القانوني ، من هنا يتحول العمل إلى قيمة معنوية ، وعدم توفر العمل (البطالة) تصبح أمراً سلبياً ، والتبعية للمصارف تؤدي إلى تمكين رأس المال من السيطرة على الفرد وكبته خلال جزء كبير من حياته العملية ، والشق الثاني من هذه الحياة غير العملية (التقاعد) تمر مر الكرام بدون أي تقدير من قبل المجتمع الليبرالي . فكل الدعاية والنداءات الاستهلاكية تنصب على شريحة الشباب في سن الإنتاج والاستهلاك. ويصبح المعوقون والمسنون خارج نطاق النظام الساري فعلاً على الرغم من انهم يعيشون على الصدقات التي يقدمها لهم هذا النظام . كما أن اثر تحرير رؤوس الأموال على المستوى الدولي يتعدى مجرد الترويج " لعلاقات جيدة بين الدول " والحد من أجواء التوتر السياسي والحروب ، ليصل إلى مصادر الثروة سواء كانت مصادر طبيعية أو طاقة لتنتقل إلى البعد الثاني لهذه الثروة والمتمثل في السوق التي تستوعب السلع ورؤوس الأموال ، فالحروب والتدخلات في بلدان صغيرة يمكن أن تحدث على اعتبارها امتداداً لليبرالية الاقتصادية. فالدول المسئولة عن ضمان الأمن مطالبة بخوض هذه الحروب من أجل ضمان حرية رأس المال.

على اعتبار أن الدولة مؤسسة خالية من القيم الأخلاقية الذاتية التي تضمن قيم الآخرين (باعتبار ان هذه القيم أصبحت فردية) فإنها تتجنب مهمة التهذيب ليقتصر دورها من الناحية النظرية على ترتيب القيم المتفق عليها ضمنا بين الجميع ، فالصدقات والتضحيات بدون مقابل هي قيم خاصة بمرحلة ما قبل الليبرالية. ومع ذلك فالدولة — الحكم ، تعمل على إنشاء وتشجيع مؤسسات وجمعيات شبه حكومية او غير حكومية لكي تقوم بمهمة الترويج لقيم غير مشتركة انطلاقا من قناعاتها العامة. هذا هو بالذات الدور الذي تضطلع به المنظمات غير الحكومية ، كل ذلك يبدو إيجابيا للوهلة الأولى ومن ناحية نظرية ، ولكن الأمر مختلف عند التطبيق الفعلي. فالإمكانيات المادية المتاحة ليست كافية لشمل كل المجموعات المحتاجة والتي تعيش تحت مظلة النظام ، مما يؤدي إلى تساقط الكثير من الأفراد إلى دائرة الفقر والعوز والتسول ، هذا ما يعرف بالهامشية أي العيش على هامش نظام اجتماعي قائم على المنافسة الاقتصادية وما يترتب عليها من قيم.

إلا أن مفهوم الليبرالية كما أتضح أعلاه باعتبارها أيديولوجية تدافع عن سلسلة من القيم الخاصة وحقوق الفرد بدأ يتحول باتجاه الزج بالدولة للقيام بدور المشرف على الحد من الفروق الاجتماعية ، وفي المجال السياسي تعمل الدولة على: ضمان مشاعر الراحة في هذا النظام لأغلبية شرائح المجتمع ، وضمان الاستقرار والتوازن الاجتماعي المنبثق عن التطور الاقتصادي وتفعيل عوامل الثروة ، وفي نفس الوقت مواجهة وتجنيب الغرب عواقب الظاهرة التي شكلت ميزة لهذا العالم خلال القرن التاسع عشر نعني بذلك النظام الشيوعي السوفيتي. ومن الناحية السياسية تقوم الدولة بنشر مشاعر الازدهار الشامل بين مختلف شرائح المجتمع من خلال الدفع وتفعيل الطاقة الشرائية للسكان مما يساعد على توسيع وتعزيز نطاق السوق الداخلية وهو الأمر الذي يزيد من ديناميكية رأس المال وينمي الثروة. كل ذلك تحت تسمية لغوية (تعرف بثورة كينسي Revolución keynesiana) والتي يترتب عليها نشر حالة الازدهار.

الليبرالية الجديدة كتركيب مفاهيم أيديولوجية

هذا المفهوم الكينسي للاقتصاد لم يعمر سوى حتى عقد الستينات ، ولم يظهر مفهوم جديد لليبرالية الا في عهد مارغريت ثاشر وروناالد ريغان: وهو مفهوم الليبرالية الجديدة . (حسب المفكر ريفيرا) الذي يقول: النظام الاشتراكي اخذ يتلاشى ببطء ، وانتقل إلى مركز الثقل فيه إلى الصراع الثقافي.

من الناحية النظرية يمكن القول أن الأزمة الاقتصادية كانت السبب في تغير التوجهات السياسات الاقتصادية. ومع ذلك فلا بد من التعمق في دراسة تأثير الغرب على إضعاف الاتحاد السوفييتي ، وعدم توفر مؤشرات ملموسة على الجدوى الحقيقة لهذا النظام الاقتصادي. "ريغان" الذي يعتبره البعض رائد عهد الليبرالية الجديدة قد يقول بان الدولة ليست الحل بل هي المشكلة. ومنذ ذلك فالمحللين لا يركزون جهدهم على التحليل وتصحيح الفجوات التي يعاني منها الاقتصاد بل ان تحليلهم انصب على طريقة الحد من الدور المنوط بالدولة. وظهرت مفاهيم جديدة ليست أقل تأثيراً بالاطروحات الأيديولوجية: كاحتواء النفقات العامة ، إضعاف النمو ، نفقات عامة ، حوافز التعاقد.. ونتيجة لهذا الطرح تصبح الدولة مجرد إداري سيئ يواصل عمله بدون فوائد. وعليه فان كل ما يعود بالفائدة المحسوبة والملموسة فلا بد من الحد منه. وقد تدرج إجراءات الحد من نفقات التعليم وتقليص عدد الشهادات الجامعية ضمن هذه الأطر الفكرية.

من حيث عوامل الاقتناع العام بهذه الليبرالية الجديدة تم اللجوء أو استعادة بعض مفاهيم الليبرالية التقليدية مثل أهمية الفرد ، والحد من دور مؤسسة الدولة ، وموضوع السوق الحرة. وانطلاقاً من النظرة الجديدة لأهمية الفرد ابتدعت مفاهيم لغوية مثل الفردية كآلية عمل. وهذا يعني بأن على الدولة إن تمتنع عن أي تدخل لأن الأفراد يلمون (كل على انفراد) بماذا يريد وسوف يبحث كل بأسلوبه الخاص عن وسيلة لتحقيق مآربه.

من حيث التخطيط وتوزيع الأدوار فالمفهوم الذي استخدم من قبل الليبرالية الجديدة يتمثل في ان السوق ند للدولة. فالسوق - بالنسبة على الأقل لبعض أدبيات الليبرالية الجديدة - تتميز بكفاءة

أكبر على توزيع الأدوار مقارنة بقدرة الدولة على التدخل والتأثير ، في هذا الإطار الذي تحل فيه السوق محل الدولة يستدم الخطاب الليبرالي الجديد التعبيرات التالية:

١-التبادل التطوعي للسلع والخدمات .
٢-الثروة المحدودة.
٣-زيادة مرونة السوق.
٤-المنافسة الحرة.
٥-الصرف الحر.
٦-الضيعة الشاملة.
٧-مرونة سعر صرف.
٨-إعادة التوازنات التجارية.
٩-الافتتاحية وتحرير أسعار الصرف .
١٠-الخصخصة.
١١-السوق الحرة.
١٢-تعديل الأسعار.
١٣-سوق العمالة.

أثر الليبرالية الجديدة في تحديد مفاهيم الواقع

ظهور مواطن انعزالي إلى أقصى حد ، يتميز بدرجة عالية من البراغماتية وينطلق سياسياً من وحي التسرع وابتلاع الآخر" (http://members.tripod.com/planalerta/neoliberalismo.htm)

وبناء على ذلك فالليبرالية الجديدة تؤسس لنظرة جديدة حول الواقع الاجتماعي وتبعاته الاقتصادية وتوسع هوة الخلل الداخلي الذي يلقي بآثاره على حياة سكان بلد ما. كما تعمق بعض أشكال الاختلال الاجتماعي القائم وتحدث صوراً أخرى من صور الفوارق الاجتماعية. ومع ذلك فإن التخلخل يتوازن الى حد ما بسبب الانتماء إلى عالم شمولي ، وبسبب المؤثرات الدولية على عالم يتسم بالشمولية. المواطنون في الغرب يعيشون في ظل نظام الليبرالي الجديد ويتمتع سكان المناطق القريبة من المركز بحياة افضل من سكان المناطق الواقة على الحافة ضمن نفس النظام. الليبرالية الجديدة تستغل هذه الحالة ، من وحي الصياغة الأيديولوجية ، ومن أجل توظيف الثروة المادية والأسواق الخارجية لصالح سكان العالم الغربي وبهذه الطريق فالثروة تخضع لقوة الجاذبية المركزية بل من الطرد المركزي.

بنـــاء الليبراليـــة الجديـــدة مـــن مفهـــوم تخلف الطرف الآخر

العالم الشمولي يبدو بموجب الخطاب النظري لليبرالية الجديدة وكأنه مسئول عن مظاهر تخلفه ، وتعزى الأسباب إلى أمور ملازمة ذاتية. في هذه الحالة توجد تعبيرات لغوية مركبة منها على سبيل المثال:

- النمو السكاني المتسارع.
- التخلف في طبيعة التفكير (كالقول بأن ثقافتهم هي مسئولة التخلف).
- الافتقار أو انعدام روح المبادرة والتجارة.
- ظروف طبيعية غير مواتية ، الافتقار للطاقة البشرية اللازمة لتغيير الظرف المحيط.
- قلة رؤوس الأموال الوطنية.
- عراقيل تضعها الدولة.

وكما هو من الطبيعي فإن التنمية يجب أن تلقى التشجيع من قبل المبدأ الشمولي بواسطة:

- دعم التنمية والتي تشمل
  - المشاركة في رسم السياسات التي تضعها الدولة والسياسات الاجتماعية والاقتصادية الداخلية .
  - التدخل في الاقتصاد الوطني .
  - مساعدات محددة على شكل قروض محدودة الفائدة .
- تدخل الدولة
  - " افتتاح " التشريعات الوطنية أمام إمكانيات تدخل العولمة (الشمولية) .
  - خصخصة ثروات الدولة الاقتصادية .

وفي كل الحالات تعزى المسئولية عن التخلف إلى الطرف المتخلف ذاته ، والمسئولية دائماً لا يتحملها الطرف المتكلم الذي يقدم نفسه كطرف مخلص وشهم في تقديم الدعم من خلال برامج مساعدة التنمية بما يترتب على ذلك من تحليلات في الخطاب أشرنا إليها في الفقرة السابقة. المساعدة التي تقدم للطرف المشمول على الرغم من أهميتها الظاهرية ليست سوى أمر تجميل ظاهري. خلال القمة الأخيرة لدول مجموعة الثماني العظمى المنعقدة في يوليو ٢٠٠٥ ، قامت مسائل الإعلان بالتحدث عن شطب ديون القارة الأفريقية ولكن:

ظهرت هنا أيضا الفروق في مواقف كل دولة من الدول عند تحديد القضايا المعروضة على جدول أعمال مجموعة الثماني ، ويتضح ذلك عند مراجعة نتائج القمة المتباينة. من المنصف القول بأن النوايا لمضاعفة المساعدة الشحيحة لأفريقيا قد اتضحت كما اتضحت النية بشطب ديون ثماني عشرة دولة من الدول الفقيرة ، ولكن إجمالي ديون القارة لم تتأثر بتاتا ولا زالت تشكل العبء على قارة المجاعة ، والإيدز والموت الجماعي للأطفال.

هذه التأكيدات صدرت عن عناصر بارزة في اللجنة التنفيذية من الحزب الاشتراكي والحكومة الأسبانية ، فإن لم ينتقدوا أطروحات مجموعة الثماني ، إلا أن تأكيداتهم تعتبر دليلاً وبرهاناً ملموساً على عدم وجود آراء موحدة داخل الاتحاد الأوروبي:

ليس بالإمكان مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين طالما ظلت أووربا عاجزة عن التحدث بصوت واحد والتصرف بموقف موحد لسبب بسيط هو أن كل هذه التحديات تعتبر شاملة.

إن أصحاب هذا الطرح لا يحثون فقط على التوحد الاقتصادي بين الأوروبيين بل يطرحون الحاجة لوحدة سياسية أيضا ، لمواجهة التحديات الشاملة التي تبدو في أفق العالم الجديد.

المسافة بين بلد وأخر قد لا تتجاوز بعض الدقائق وحتى الثواني فما الذي يبرر القول بأن مشاكلها مختلفة؟ وبعض الجوانب تبدو بديهية مثل: جودة المواد الغذائية ، التعليم ، الثقافة ، التقاليد الأديان ، النظرة إلى الحياة ، الطموحات ، المفاهيم والقناعات ، القدرة على تحين الفرص ، مستويات التثقة بالذات وبالأمة ... الخ. (http://www.ivsol.com/artis/moda_odio.htm)

هذه التأملات وجدناها في مقال نشر تحت عنوان(لماذا النفور من العولمة) والذي يضع كاتبه Franz J. Fortuna جملة من الأسس

والعناصر التي تشكل في رأيه جمعيها باستثناء، جودة المواد الغذائية، جزء من تعريف الثقافة، وهذا يعني أنه إذا كانت الثقافة عاملا للتقدم فمن الممكن أن تكون أيضاً عاملاً مضاداً لهذا التقدم أي سبباً في الفقر والتخلف، والنتيجة: نحن أغنياء لأن ثقافتنا تدفع وتشجع على ذلك، وهم فقراء لأن ثقافتهم لا تسمح لهم بالتقدم، وعليه فإذا كان الازدهار مرهون بالثقافة وبالتالي فالتخلف نتيجة لها أيضا. أي أن الثقافة تحدد فرص التنمية أو التخلف، وعليه إذا ما أخذنا بهذا التحليل فلا مجال للهروب من هذا المصير، والمحصلة النهائية التي تترتب على كل ذلك هي بوضوح أن الدول النامية لا مفر لها من العولمة.

كلمة الليبرالية في الإطار السياسي تتأثر بما يسميه Josefa Arregui في مقال نشرته صحيفة الموندو بتاريخ ٣/ ٨/ ٢٠٠٥ بالقومية. ويبين ذلك قائلاً: "إن دولة القانون تعني وضع كل المصالح، وكل الأعراق وكل المعتقدات تحت سلطان القانون الذي يطبق على الجميع بدون مراعاة لمصلحة أو هوية أو معتقد. إن هذا الانصياع للقانون يعني خصخصة أو ذاتية المصالح والأجناس والمعتقدات. ويترتب على ذلك الحد من كل هذه المواصفات على نحو يجعل الحيز العام للديموقراطية يبرز جليا عندما تتخلى المصالح والهوية الذاتية والمعتقدات احتكارها وتعترف بأنها ليست الوحيدة المخولة بالدفاع عن الحيز العام أو المصلحة العامة".

ومع ذلك فليس كل ما يلمع هو ذهب، فالنتائج التي تتمخض عن الليبرالية الجديدة وأصدائها على العولمة تتعدى حدود الاقتصاد والسياسة.

العولمة وثقافة الذخر والترجمة

من بين المطالب التي تطالب بها الحركات الثقافية والاجتماعية المضادة للعولمة المحافظة على الهوية والتي تعتبر عاملا من العوامل التي تستخدم لتبرر نشاط هذه الحركات. وما تقوم به هو المطالبة باحترام الخصوصية أي المحافظة على عناصر الذاتية المميزة لأي هوية، وذلك في إطار البيئة. في هذا المجال، يجب أن نؤكد بأن البيئة الذاتية هي النقيض للعولمة ونشير في هذا المجال الى رأي Jean Daniel مدير تحرير Nouvel Observateur نظراً لأهميتة التوضيحية ويقول: "... بعد كارثة الثلاثاء الماضي (١١ سبتمبر) سوف نشعر بأننا أيتام. فالمشاعر المضادة لأمريكا سوف تتبدد ويصبح الجدل حول هذا الموضوع بدون مضمون. وقد يأتي اليوم الذي يتشوق فيه عدد كبير من المشاركين في مظاهرات (البندقية) المضادة للعولمة لدور المؤسسات الدولية... (El Caos,) نشر في صحيفة البايس بتاريخ ١٤/ ١١/ ٢٠٠١".

بشأن العلاقة بين العولمة والوسط البيئي والهوية هناك أزمة ترجمة. فالعولمة قد تستدعي إزالة الحدود التي تفصل بين الثقافات الذاتية وبين أنظمة التعليم، والبيئة من جهتها تطالب بالنقد والحافظة على الهوية وبالتالي التأكيد على الفردية، والطريقة الوحيدة للتعبير عن الذاتية هي الترجمة، ومع ذلك فالتعليم ليس من صلاحية "المعولم " بكسر اللام بل للمعولم (بفتح اللام) فالذي عليه أن يتعلم هو الآخر. وبالتالي فالموضوع مجرد تحديد هوية المتسلط، فالمسيطر هو الطرف الذي ليس مضطراً الى تقديم التنازلات، بل هو الذي يفرض ذلك على الآخرين. والسلطة بهذا المغزى تعني تفضيل الخارج عل الداخل، وهي إمكانية التكلم بدلاً من الاستماع. وبعبارة أخرى هي بمثابة منح المسيطر القدرة على ان يقول لا للتعلم (Gomis 1979, 48). الثقافات الذاتية، القابلة للترجمة تقليديا تركن في زاوية الخصوصية الكاملة، وبذلك تختفي من العرض العام. الغرض هو محاولة وضع أسس " التفكير الجماعي اعتباراً من التفرد وبناء عـليه" (Mate 1993, 66 ‘) .

أحد الاستراتيجيات الخطابية لهذه الظاهرة هي إعادة تعريف بعض المفاهيم الرئيسية. فكلمة الحضارة (أو المدنية) أصبحت تشير إلى حضارة) بعينها، وبقية الحضارات اكتسب لغويا مفهوم الثقافات. وعليه فإن أنواع عديدة من الخطابات تشهد الخلط بين الحضارة (المدنية) والثقافة، بحيث يفهم من الأولى بأنها حضارة عالمية ومعولمة أما الثقافة فتعني مرحلة ما قبل الحضارة (المدنية). الثقافة (cultura) كما يوحي اسمها هي اقرب إلى الزراعة agricultura إما الحضارة (المدنية) فمصدرها اللغوي هو civitas وتعني نمط حياة المدينة. في حوض المتوسط تم الانتقال من ثقافة إلى حضارة. شقان رئيسيان بقيا كمرتكز للهوية المتوسطية: الحضارة (المدنية) اليونانية الرومانية والثقافة السامية (Racionero,1991,24) . الثقافة بناء على وجهة النظر هذه ، لها علاقة بالرعي والزراعة ، أي أن لها علاقة ضمنية بالأرض، أما الحضارة (المدنية) فتتم في بيئة تتسم بالعلاقة الديناميكية ما بين البشر، ومرتبطة بالتغيرات المتواصلة داخل المدن (المدنية). الثقافة تقع في دائرة تخصص الجغرافية الطبيعية التي تعني بالجمود، أما الحضارة (المدنية) فعلاقتها بالمدينة أو بالحضرية لذا فعلاقتها بالجغرافيا الإنسانية التي تشتمل على كل ما له علاقة بالإنسان وبيئته، وبناء على ذلك فمن البديهي إن الحضارة بموجب نموها المتمدن تشتمل على الثقافة وليس العكس.

وإذا ما تمادينا في الإفراط بالتقيد بالأبعاد اللغوية التي ترتب على هذا التحليل، نجد أن أحد الظواهر المتحركة المعدودة، ربما الأخطر، التي تسير باتجاه معاكس هي الهجرة من المزارع إلى المدينة أي من الثقافة إلى الحضارة (المدنية)، وهذا يفسر سر مشاعر القلق الإعلامي – السياسي حيال ظاهرة الهجرة. واستكملاً للافتراض السابق فالهجرة يترتب عليها تحويل المدينة إلى ريف ويترتب على ذلك إضفاء ظاهرة الثقافة على الحضارة، وهو أمر غير مرغوب لأنه تراجعي، وإذا ما أمعنا في هذا التحليل في محاولة لاستنباط نتائج أعمق لهذه الظاهرة، واقتصرنا الثقافة على الجنوب والحضارة على الشمال نتكشف كيف أن وجود ٤ - ٥ مليون مسلم في الجانب الشمالي من المتوسط يزيد الأمور تعقيداً (Racionero 1991,28). هذه الأزمة ناجمة عن كون العولمة (كتعبير لفظي) تفتقر لمعني لغوي واضح وشفاف.

العولمة باعتبارها مشروع سياسي جغرافي واقتصادي ذو اتجاه واحد، تسعى إلى إلغاء حدود معترف بها ورسم حدود بديلة على أنقاضها. إذا كانت الحدود العالمية الراهنة تعتبر حدود مصطنعة لأنها رسمت كما يقول Bruñes, Vallaux واشار لها Foucher (١٩٩١:١٥ inventées par les hommes d:Ëtat et par les militaires pour " oprimer les peuples " فالحدود التي تسعى العولمة لإرسائها هي اقل عقلانية عند محاولة استيعابها انطلاقاً من القواعد التقليدية لمفهوم الحدود. صحيح بأن الحدود لا زالت تشير إلى خطوط رسمت على ورق لاحتواء مساحات محددة. والآن لم تعد المساحات تدل على حيز معين وملموس حيث أدخل على هذا المفهوم قياسات أخرى

تختلف عن المقاسات التقليدية وقد تتضارب معها. ففي الماضي كانت المساحة تمثل حيز جغرافي فقط أما الآن فالحيز ليس له مقاس محدد بل يعتبر بعداً اقتصادياً ونفوذاً سياسياً. من هنا تبدو الأزمة . ففي هذا الوقت يصعب تفهم أو استيعاب مفهوم المساحة بمعزل عن الظرف او عامل الزمن: فالسؤال الذي يتردد الآن عندما تتصل هاتفياً بشخص ما وتسأله: أين أنت ؟ لم يكن وارداً قبل سنوات قليلة فقط وهو دليل على انصهار الزمن والمسافة. ففي الماضي كان الشخص متواجداً في مكان محدد للتحدث مع شخص آخر أما الآن فلم يعد بالضرورة. وعليه فالمسافة أصبحت متغيرة ومتفاوتة ، والسبب يعود جزئيا إلى العولمة والتكنولوجيا الجديدة. فالعولمة المطروحة الآن تسعى من ناحية إلى تحرر التبادل التجاري من العراقيل الطبيعية ولكنها تمنع الأفراد (الفقراء) من التنقل من مكان الى آخر ، وبعبارة أخرى تسعى الى عولمة صادرات دعاة هذه العولمة وأقلمة صادرات الطرف المعولم (المفروض عليه العولمة). وإقناع الآخرين بهذا الأمر مجرد خطاب إنشائي.

العولمة والدين

مع صدور المقال الذي كتبه هنتينغتون حول الصراع بين الحضارات بدأت مرحلة ترقب لاستيعاب هذه المفهوم. تمتاز في أن الطرف الآخر يستعيد هويته الحضارية ، ولو أن ذلك يقترن بحقل واسع من التعابير اللغوية المتعلقة مجازاً بالحرب - اعتباراً من الآن فإن مسرح المعركة هو الحضارات - الثقافة والدين يكتسبان أهمية تتفوق على العقيدة الفكرية كما نشرت صحيفة (أ. ب.س) في دراسة ثقافية لتقديم المقال المذكور ، ما الذي نعنيه عندما نتحدث عن الحضارة. الحضارة هي هوية ثقافية. الشعوب والأقاليم والمجموعات العرقية والقوميات والمجموعات الدينية لكل منها ثقافة مختلفة حسب مستويات التنوع الثقافي (أ. ب.س / المحلق الثقافي ١٨). الحضارة إذن هي ثقافة شاملة تتسع لمظاهر محددة تنحصر في مجموعات أو مناطق معينة.

الثقافة أيضا خاضعة لإعادة التعريف. الثقافة " ليست مجرد نتيجة أو أثراً لتنمية المعارف الإنسانية والارتقاء بها الى أعلى مستوى من خلال التمرس في توظيف القدرات الفكرية للإنسان " كما أنها "ليست سلسلة من أساليب الحياة والتقاليد والمعارف ومستوى التطور الفني والعلمي والصناعي في مرحلة من المراحل الاجتماعية"، الثقافة ليست كل ذلك فحسب بل أنها في الكثير من الأحيان توازي أو تحل محل الدين. في بعض الحالات تستبدل كلمة الثقافة بالدين في الخطابين الصحفي والسياسي ، إن هذا التماثل بين الدين والثقافة يدخل في صلب الضرورات والمتطلبات اللغوية لنظام العولمة. "لغة النفاق أصبحت اليوم اللغة الشائعة الخالية من المضمون التي تستخدم في السياسة والمنطق لخوض حرب ضروس ضد التعصب والأصولية كما يؤكد (ترياس ١٩١٩ ، ٣٢).

ولكن المصلحة تتعدى الاستعارة والنقد اللغوي. اللغة المستخدمة من قبل السياسيين والمنظرين المشار إليهم تشكل وسيلة تشتمل على سلسلة من الاستراتيجيات الخطابية من اجل خلق أو تعزيز وجود الهوية. ويجب أن يأخذ القارئ في الاعتبار أن العولمة هي أولا وقبل كل شيء مجموعة من الألفاظ اللغوية صاغها راهب سابق. التعبيرات اللسانية هي الوحيدة القادرة على إعطاء قيمة مطلقة أو نسبية لأي ظاهرة ملازمة لطبيعة الإنسان بما في ذلك تغير مضمون الأشياء. لكن هذه القدرة على تبديل الأشياء مرتبطة أو مرهونة بقوى أخرى تتجاوز الإعجاز اللغوي " لأن من يستطيع تغيير مغزى الألفاظ اللغوية هو صاحب الكلمة العليا او السلطة " (طبقا لتأكيدات مونيوث الونصو ٢٠٠٢,١٧). الحضارات والثقافات -على الرغم مما أكده بعض المفكرين الذين أشرنا إليهم- خاضعة للتبدل والتغيير والترجمة أما الأديان فلا تكتسب اي معنى باستثناء عند من يؤمن بها ، هنا تكمن إشكالية العلاقة بين العولمة والدين ، الأديان تعني الكثير بالنسبة للشعوب بما فيها بعض الشعوب الأوروبية التي تعتبرها عنصرا أساسيا للهوية " كما يؤكد أحد أستاذة القانون الدستوري ، من أجل التغلب على هذه المعضلة فمن الضروري اعتبار الدين شأنا نسبياً وليس مطلقاً هذا ما تسعى له العولمة إعادة تقنين مفهوم الدين ضمن إطار تعريف ثقافي. ونذكر بأن وزيرة الشئون الاجتماعية الأسبانية وقعت في نوفمبر ١٩٩٤ اتفاقا مع ١٧ ممثالا عن كافة إدارة الحكم الذاتي في أسبانيا اتفاقا يقضي ضمان الحماية للعلامات المميزة للأقليات العرقية والصورة التي تقدمها وسائل الإعلام لهذه الأقليات.(بانيون ٢٠٠٢,٧٧).

البيان الموقع عليه يؤكد على خطورة المشكلة التي تترتب على انتشار مشاعر مريبة أو أحكام سلبية مسبقة حيال محموعات أو أفراد بسبب انتمائها لعرق أو دين مختلف. كما يؤكد البيان على الدور المؤثر لوسائل الاعلام العامة صياغة الرأي العام للمجتمع وما يمكن أن تلعبة في تربية وتهذيب القيم السائدة (صحيفة البايس ١٩٩٤/١١/٥).

عدم التجانس الثقافي ، على المستوى الدولي في البداية وما ترتب — فيما بعد- على وجود المهاجرين من دول الإسلامية يمثل الكناية للدور الذي يمثله الدين بالنسبة للعولمة. والآن فإن بقية شعوب العالم ينتهج كل شعب منها أيضاً سياستها الأحادية الجانب ، وليس بالضرورة أن تكون عسكرية أو اقتصادية أو علمية ، بل غالباً ما تكون دينية وثقافية وأيديولوجية من المؤكد بأنها سياسة عدوانية وانتقامية. إنها سياسة الثأر التي تتغذى وتغذي مشاعر الانتقام والحقد الثقافي. وكما افترض هانتينتغون في نظرية الصراع بين الحضارات ، فالقرن الواحد والعشرين الذي يعاني من تمزق بسبب الصراع بين الثقافات متعايشة على الرغم من أنها قد تكون غير متجانسة ، ولن تهتدي إلى طريق السلام (انريكي كالبو خيل: نحو الصراع بين الحضارات / البايس ١٢/ ٩/ ٢٠٠٢)

يجب أن لا ننسى بأنه سواء في هذه الحالة أم عند في حالة عن العولمة بشكل عام فالطريق فإن العولمة تتطلب بالضرورة عملية امتصاص منسق وليس من خلال انخراط بيئي. وهذا يعني بأن تلك الجوانب التي لا تقبل الانصهار يجري مسخها بدون تردد وكل من يقاوم الذوبان يتعرض للإدانة. وخلاصة ذلك هي أن العملية تتمثل في ابتلاع ثقافي.

Parsons يحدد أربع أنظمة فرعية في المجتمع ويعطي لكل منها دوراً (مهمة) أساسيه. مهمة السعي لتحقيق الأهداف الجماعية تقع على كاهل النظام الفرعي السياسي بالدرجة الأول. ومهمة التأقلم أو التكيف تقع على كاهل الاقتصاد ، ومهمة الإبقاء على التقليد المتبع هي من دور العائلة ، أما مهمة الانخراط فهي من مسئولية الثقافة كأحد الأنظمة الفرعية ونعني بالثقافة هنا كل ما ينبثق عنها من تعليم ودين ووسائل إعلام.(gomis 1979:45).

عندما يتعلق الأمر بتطبيق هذه الأنظمة الفرعية الأربعة على الطرف الآخر (المختلف) فيكون الأمر مختلفاً عماً إذا كان التطبيق على الذات الجماعي (النحن) كما سنرى فيما بعد.

العولمة والترجمة الثقافية:

الترجمة من العربية إلى الأسبانية ، وتقديمها أو إعادة تمثيلها مرهونة النظام الفرعي الأخير لتصنيفات بارسون الخاصة بالأنظمة الفرعية أي والنظام الفرعي الخاص بالثقافة الذي يشتمل في الواقع على مجموعة من المواضيع مثل التعليم والدين ووسائل الإعلام كما تؤثر كثيرا في الاقتصاد والعائلة. التكامل والتمازج شرطان ضروريان من أجل إبراز الملامح الثقافية للآخر.

(...) على الشرقيين أن لا يستغربوا فيما إذا كانت خياراتنا خاطئة ، ولكن هذه الخيارات ليست عشوائية ، فهي مرهونة بأحكام ولا تؤثر بأي شكل من الأشكال على الدرجة الجمالية لأي عمل فني قد يستثنى مرحلياً. فالناطقين بالأسبانية عليهم أن لا ينسوا بأن المشهد المعروض عليه قد مر بعدة مراحل من الغربلة ، وإن المستوى الأدبي — الذي أخذ دائماً في الحسبان — يجب تتم توأمته إلى جانب عوامل أخرى التواصل المتبادل للعمل الأدبي الذي يترجم. (....) غارثيا غومث بتعليق وإشارة من Carbonell I Cortes 1997: 78

وهناك كذلك عنصر آخر هام في عملية نسخ الأخر يتمثل في إظهار مستوى عدم التجانس. نجد هذا الأمر واضحاً مثلاً عند مقارنة ترجمة النصوص في وسائل الإعلام. هذه الوسائل التي توجه وتشكل الرأي العام وبالتالي تخلق أو على الأقل تعزز الصورة التي تتشكل حول الطرف الآخر:

[...] بموجب الوضع الراهن للتعليم فالرأي العام يمثل نسخة مهذبة ومشفرة للأحداث. فالمقياس السائدة والمترسب يعتبر جوهر ننطلق منه لتحديد ماهية الأحداث التي نراها وتحت أي كجهر سننظر إليها. وعليه فإنه وبموجب افضل إرادة ممكنة ، فالمغزى المكتسب من الخبر في جريدة ما ينسجم عادة مع المقالات التحليلية [...] (Gomis 1979:106)

وفي هذه الحالة فالفكرة المترسبة في الذهن تعتبر مجرد ذريعة نظرية . "عندما يستفحل نظام أفكار مترسبة في الذاكرة ، فإن ما يجذب انتباهنا هو تلك الأحداث التي تؤكد ملامح هذه الترسبات او النظرة السائدة ، وتهمل كل ما لا يتمشى مع ذلك" (Gomis, 179: 106). الكثير من المسائل المتعلقة بالثقافية العربية ليست بحاجة لحجج لتأكيدها لأنها تتطابق مع الصورة المتمكنة في ذهن المجتمع. وأي خروج عن هذه الصورة السائدة يجري تعديله على نحو يتسق مع هذه الفكرة المترسبة بعبارة أخرى يجري التلاعب في الواقع لكي يتمشى مع الأفكار المترسبة في الأذهان.

[...] يقول Enserberger إن المصدر الاشتقاقي للفظي لكلمة تزوير او تمويه أو (التلاعب) Manipulación قد ينجم عن تحوير متعمد وفني في مادة ما . وفيما إذا كانت عملية التدخل هذه ذات أهمية اجتماعية مستهدفة فالتزوير يصبح عملا سياسيا ضمن ما يسمى بصناعة الضمير. [...] (Gomis 1979:102).

بناء على وجهة النظر هذه فإن عملية التلاعب يمكن أن تكون نهجاً مشروعاً يقوم على التصرف فنياً بالموضع المعني. ومع ذلك فإن عبارة التلاعب الفني بالموضوع هي مجاز لا يضع حدود معينة ، كما لا يحدد الأطر ولا مشروعية هذا التدخل. فالمصلحة الحقيقية أو الصورية أو العادة السائدة يمكن أن تبرر أو تمنح المشروعية لهذا التعبير المجازي حول صناعة الضمير علماً بأن " الإعلام هو الرابط الذي يؤسس للمجموعات. فالإعلام هو وحده الكفيل بجعل مجموعة بشرية ما تفكر بشكل مشترك وأن تنظر للأمور وأن تتصرف بنمط موحد" كما يقول Nrberto Weiner (Gomis, 1979:41)

الحرفية في الترجمة:

الترجمة غالباً ما تكون حرفيه ، الترجمة نقل حرفي للتعبيرات اللغوية العربية ، والنتيجة الافتقار للتجانس والانفصام عن النص الذي ستدرج فيه الكلمة. وبمعنى آخر إن ما يترجم هي الكلمات وليس المضمون العام اللغوي والبرغماتي (العملي) للتعبيرات اللغوية. هذه الظاهرة بحد ذاتها أسهل وأبسط من الحلول الأخرى التي يجري الاهتمام بالأسلوب كشرط أساسي للترجمة.

الدكتاتور العراقي صدام حسين وجه خطاباً لشعبه على أثر قصف أمريكي عنيف بدأه الخطاب بهذه العبارة: "أيها العراقيون البواسل": الترجمة الرسمية التي صاغتها وزارة الإعلام لعراقية كانت أيها العراقيون الشجعان. الترجمة التي أجراها مراسل شبكة CNN الأمريكية في العراق كانت على النحو التالي: أبطالنا الأشاوس (Carbonel I Ovidio, 1998: 170).

من وجهة النظر اللغوية البحتة الترجمات مشروعة ومقبولة ولا غبار عليها فهي تستوفي كل الأحكام القواعد اللغوية الأسبانية. ومع ذلك فالترجمة الثانية غير مستساغة لأنها تستخدم نمطيا لغويا يعود إلى القرن السابع عشر ، لذا تعتبر في الوقت الحاضر من الأساليب التي أكل عليها الدهر وشرب. كما أنها تقدم للمستمع إنسانا يندرج ضمن تعريف النمط الكيخوتي الذي يستخدم تعبيرات لا تتمشى مع العصر ولا مع الظروف الراهنة.

هذه الصياغة مستغربة بالنسبة للقارئ الأسباني. الفكرة الضمنية المستشفة من التعبير اللغوي نادرة في أفضل الحالات مستهجنة. والمفهوم الذي وصل إلى القارئ الأسباني عن طريق المراسل لا يتمشى مع الثقافة الأصلية العربية ، لكمله معينة ، بل يبدو أن المغزى الذي أريد له أن يصل الى القارئ قد حدد سلفا بطريقة غير عادلة بموجب الفكرة السائدة في ذهن الأسباني. ينطبق هذا التحليل على ترجمة كلمة الجهاد حيث تترجم بعبارة (الحرب المقدسة)، إن أغلبية المفاهيم الثقافية تترجم وتصاغ من اللغة العربية وليس من منطلق المتحدث ، الملامح الثقافية الأصلية تنبعث ضمنياً من خلال الترجمة الرسمية اللغوية وليس بناء على المفهوم الوارد في الخطاب الثقافي الأصلي. وعليه فالمعلومة يمكن أن تكون شفوية وغير شفوية " (REISS Y VERMEER , 1996:53)

الترجمة الأدبية تعتمد على الثقافة أيضا بمفهوم الأنا وعلاقته بالأخر. المعايير التي تستخدم لاختيار النصوص تتعلق بسلسة من المتغيرات: الناشر ، المترجم ، وحتى المشرف المالي ، والأهم من ذلك الإطار الثقافي العام ، وفي هذا الصدد فإن هذا التأكيد الصادر عن De Munes Ibarra حول واقع النظرة للعلاقة بين الثقافات في القرنيين السادس عشر والسابع عشر.

" كل الأعمال الأدبية المكتوبة التي تم تحليلها ، كتبت من موقع المركزية العرقية. كل ما لا ينطبق مع ما يطرحونه فهو مستنكر ومحتقر وقاسي ومثير للفزع ، لمجرد أنهم لا يمارسوه ولا يطبقونه عملياً. في تصوراتهم الذهنية نجد أن شكل شئ واضح المعالم ، فالمقبول

والبديهي والعقلاني والممدوح هو كل ما يتطابق بكامل مع هو مشتق من الدين المسيحي أو بالتحديد مع ما ممارستهم الدينية " (De Bunes Ibarra, 1989: 249)

لا يمكن القول أن الدين يعتبر الآن المنظار الوحيد الذي نستطلع به معالم ثقافة الآخر ، بل إن العلمانية بكل ما تمخض عنها قيم أخلاقية اجتماعية وكل القيم ترسبت في المجتمع طوال القرن العشرين ، قد حلت محل الرأي الديني الذي استحوذ على هذه النظرة ، لكن هذه القيم العلمانية لم تتمكن من القضاء على الأفكار المتوارثة. هذا هو السر توافق النظرة بين الفكر اليساري والمحافظ عند تقيم الأدب العربي.أهمية الثقافة تتفوق على الأيديولوجية كما برهن ذلك إدوارد سعيد في كتاب الاستشراق. استطلاع الثقافة العربية مرهون بالظروف السياسية خاصة بعد ان تلاشى دور ببعض العوامل الأيديولوجية شجعت في الماضي على التقارب مع الآخر. معهد التعاون مع العالم العربي الذي أسس عام ١٩٥٤ كان يهدف إلى المحافظة على العلاقات التقليدية الجيدة القائمة مع العالم العربي ، وبالتالي كسر العزلة التي كان يعاني منها نظام فرانكو. الترجمة من العربية تعرضت بدورها لعراقيل نتيجة عامل داخلي آخر هو الأندلس ، بمقتضى السؤال الذي كان يتردد دائماً في مخلية الأسبان ما الفائدة من ترجمة ما يأتي من الخارج (العالم العربي) طالما أن لدينا ما يكفينا من مراجع محلية ؟. وبالفعل انصب جهد المستعربين في تلك المرحلة على الأندلس (التي لعبت دور الشرق الأسباني) وأهمل ما يأتي من العالم العربي كما يقول (Fernando Parilla. 1998:8).

وعلى أي حال فمن الصعب إيجاد مبررات لعدم ترجمة المصادر المغاربية باستثناء تلك التي جاءت عن طريق فرنسا. ومن بين التفسيرات الممكنة – بالإضافة لعامل الأندلس – المشار إليه ، قد تكمن في " أن اعتقاد ا والمترجمين الذين نشئوا في الوسط الجامعي – والذين تسود بينهم فكرة تقول إن العنصر الأصلي والمميز للثقافة العربية هو أولا وقبل كل شيء ذلك الذي يأتي من لبنان وسوريا ومصر وفلسطين " طبقا لما أكده Perez Cañada,1998:18). أما الآن وبالتزامن مع السقوط الفلسفي الصراعات الإيديولوجية الاجتماعية ، أصبحت الثقافة الذاتية تقوم بدور الغربال لكل ما هو آت من الخارج. يبدو بأن العالمية الوحيدة الوحيد في مستقبل تتمثل في تلك المترتبة على احتواء الجنوب من قبل الشمال أي اشتماله.

العراقيل التي تلقها العولمة المتمثلة في الحد من حركة الأفراد والهجرة ، بالإضافة لعامل الدين تجعل من الصعب استيعاب اعتبار (العولمة) نظام قيم. الواجهة التشاركية والتعاونية النظرية المفهومة ضمنا في هذا الطرح تخفي حقيقة تقديم العولمة كعملية الهدف منها إعادة ترتيب أوضاع العالم بعد مرحلة الاستعمار من حيث الأسواق والثروات العالمية. وبذلك أهملت الثقافة وتحولت الترجمة إلى وسيلة أخرى من وسائل الاتصال الإعلامي بكل ما يترتب دور وسائل الإعلام من مميزات ومساوئ. وبتعبير آخر بدلا من الترجمة التحليلية المتعمقة يتم التركيز على الصورة الظاهرية وتسود ترجمة موحدة لا غرض منها سوى نقل الفكرة الفورية.

وإذا ما نظرنا إلى الأمر من الجانب الأخر نستطيع القول أن العرب استخدموا الترجمة دائماً ، وأن صلتهم بالعالم الآخر لم تكن ممكنة بدون الترجمة. وبالفعل ، إذا فكرنا في الوضع الحالي فالنهضة العربية لا يمكن فهمها بمعزل عن التواصل المستمر مع أوروبا منذ القرن السابع عشر ، ومن الملموس أن الأدب العربي المعاصر – من حيث الشكل – بما في ذلك الشعر ليس إلا نسخة من الأدب العالمي. وبإمكاننا القول أن الشكل والقالب الأدبي الغربي قد عم العالم العربي منذ القرن التاسع عشر. وهنا يتبادر الى الذهن السؤال: ما الفرق بين ذلك الانتشار الأدبي وبين العولمة المطرحة الآن ؟ وللرد على هذا السؤال نقول بأن الفرق يشمل الأطراف والأبعاد والنتائج. العرب لجئوا إلى الترجمة لبناء وتزين بيتهم الداخلي. منطلقين من الحاجة لاستيعاب واكتساب كل ما يدور من حولهم. العوامل التي تحدد نوع ودرجة الاستيعاب والتأقلم خاضعة للعرب ذاتهم الذين يقررون ما هي الجوانب التي لا يجوز المساس بها من ثقافتهم وتلك التي تتطلب المراجعة والتعديل وحتى الإهمال. والترجمة بدت في الكثير من الأحيان كسماد للأرضية الثقافية منذ عهد محمد علي. أما العولمة المطروحة الآن فهي فرض للرأي من الخارج. العرب في القوت الحالي ليسوا من بين العناصر المحركة للتاريخ بل هم الهدف من ذلك. أطروحات العولمة لا تعنيهم ولم يجري استشارتهم حولها خلال مرحلة التحضير. فالأمر إذا هو تحرر استهلاكي مفرط وفقدان تام للقدرة على التحكم في ثرواتهم المادية وتلك التي تترتب على الثقافة. وعليه فليس لهم القدرة على الترجمة بل يقتصر دورهم على تلقن الدرس وتطبيقه.

وفي كل الحالات فالقسر الثقافي لا يقتصر على الآخر ، بل يمكن ملاحظة انعكاساته كمشكلة حتى على الذات (الأنا). "مسيرة الوحدة الأوربية سارت حتى الآن بطريقة مبسطة تتمثل في العمل سوياً في أكبر عدد ممكن من القضايا ذات الاهتمام المشترك في المجال الاقتصادي والاجتماعي والمؤسساتي والسياسي ، ولكننا أجلنا النظر في المهمة الصعبة المتمثلة في الحوار الثقافي ، وقد حان الوقت بدون شك لطرح هذه المسألة ". (Garcia Perez 2004 :52)

الخلاصة

التحليلات السابقة تظهر بأننا بصدد مسألة نقل المعاني ، وهي لا تكمن في الترجمات الخاضعة للتحليل ، ولا في النص الحرفي ولا البرغماتي بل تتعلق بأسماء العلم فقط لا غير. بعكس ما يفترضه Reiss و Vermeer من أجل ترجمة عملية لنصوص معينة: " نعني المعاني العامة للنص وليس معاني الكلمات آخذين في الاعتبار أن وحدة النقل الأساسية هي مجمل النص ، وأن أهمية الكلمات بالنسبة للمترجم تقتصر على كونها أحد عناصر النصل".(١٩٩٦:٢٤)

الترجمات التي جرى تحليلها تكشف عن عاملين مختلفين:

- أنها محدودة وتدل بشكل عام على جهل نسبي باللغة التي يترجم عنها. ليس الهدف من الترجمة مرهون في الرغبة في نقل موضوع ما المطلوب بساطة هو نقل ما يقال. بمعنى آخر نقل حتى الحد الأدنى من المقصود من الترجمة المحدودة.
- أن المادة التي تقدمها الصحافة للقارئ الأسباني في النصوص التي جرى تحليلها تعطي ملامح عامة رئيسية باحتوائها على مغزى أيديولوجي. الأمر هنا يتعلق بثقافة تعطي لنفسها الحق بالتفكير بالنيابة عن ثقافة أخرى. في كافة الأحوال فالترجمة تقتصر على مقتطفات وجمل ذات مفهوم ضمني جاهز. مثل الله واكبر ، جهاد ... وتندرج بالكامل ضمن دائرة الدين الإسلامي.

هذه النواقص في إطار العمل الصحفي تظهر جلياً عندما يتعلق الأمر بتقارير حول العالم العربي يتطلب الإلمام بها أكثر من مجرد فهم اللغتين الإنجليزية والفرنسية. وفي هذه الحالة فالتقصير لا يعزى إلي الإعلامي الذي لم يتمكن من التواصل مع السكان بل يعود على السكان الذين لا يجدون لغات أخرى. ودليل على هذا الرأي القاطع نجده في مقال كتبه Rafael Méndez المبعوث الخاص تحت عنوان: عائلة الموسوي تفقد كل شيء: عنوان فرعي: عائلة ترضخ للواقع المتمثل في وفاة اثنين من أبنائها وهدم منزلها، نشر في صحيفة البايس الخميس ٢٦ فبراير ٢٠٠٤: "أسيه جاءت الى ايت كمارا، المكان الذي كان مركزا للزلزال، من أجل مرافقة والدها الذي فقد البيت الريفي الذي كان يعيش فيه. أمام مبنى البلدية أودعت ٥٠ كليوغرام من السكر وأخرى مماثلة من الطحين تبرعت بها الحكومة ". النقص كان السبب في جدل حاد بين حوالي مائة من المغاربة جلهم من الرجال البعض منهم ملتح ويرتدي الجلابية، والآخرين يرتدون ملابساً على الطراز الغربي . القليل منهم يتكلمون الأسبانية أو الفرنسية.

ما يهمنا هنا الإشارة الأخيرة قليل منهم يتكلمون اللغة الفرنسية أو الأسبانية. أي وكأن الكاتب يود القول بأن سكان قرية نائية في عمق الريف من واجبهم (جميعا) التخاطب باللغة الفرنسية أو الأسبانية. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل يتكلم الصحفي الذي جاء إلى هذا البلد إحدى اللغات التي يتخاطب بها سكانه بشكل معتاد ؟ من الملفت للنظر هنا أن النقص يعزى إلى الآخرين، ولكن لا عيب في المراسل الذي بوسعه التكلم بالنيابة عنهم بدون أي حدود.

وعليه فإن الأسس التي تحدد الترجمة من العربية إلى الأسبانية هي: أما قبول غير محدود (مبدأ التجانس)، أو الرفض المطلق (مبدأ عدم التجانس). إن سبب التجانس يكمن بشكل عام في الظروف السياسية المواتية للمؤلف، الذي يجري إبرازه كمتمرد على ثقافة تمارس الكبت. أي أن طبيعة الخطاب السببي هي التي تحدد نوعية الترجمة. ومع ذلك هناك أعمال أخرى تنطلق من الفضولية والاهتمام الذي يبديه الكثيرون من الأكاديميين العرب، ولكن هذه الإنتاج الفكري لا يجد فرصة للوصول الا من خلال بعض دور النشر الصغيرة أو من خلال المساعدات الرسمية بدون ضمانات تذكر للتوزيع. المبدأين المذكورين يتضاربان مع ذاكرة الكثير من المترجمين وهو ما ينعكس على الترجمات.

من خلال التحليل المختصر السابق نلاحظ أن الترجمة من العربية إلى الأسبانية من وجهة النظر اللغوية تخضع لأولوية ذاتية مقارنة بالآخر. وهذا الأساس يتعلق بعوامل أيديولوجية وليس لأسباب جمالية، وبمعنى آخر أن ما يترجم ليس ما يعتبروه غالبية القراء العرب افضل الأعمال بالنسبة لأدبهم. وعلى سبيل المثال لا الحصر، " فالدراسات التي تخص الظواهر الشعبية من الثقافة والأدب المغربي هي في غالبيتها ذات جذور استعمارية باستثناء مساهمات Rodolfo Gil Grimau , ولإبن عازوز حكيم " (Fernandez Parrilla , 1998:9) والهدف من الترجمة يتفاوت حسب العوامل المشار إليها وتتراوح بين الظروف السياسية – الفكرية والتجارية (نجيب محفوظ) وحتى الجمالية وهي الأقل. ومهما كان الأمر فإذا كان هناك تضارب فكري أو ديني بين الأنا والأخر فيما يتعلق بموضوع الترجمة أي بين نص وأخر، فإن الملاحظات الهامشية تصبح ضرورة ملحة (المذكوري ٢٠٠١) من أجل التنبيه أو توضيح التضارب.

المراجع:

١- Garcia Perez R (2004) . الاتحاد الأوروبي وما حوله. توسيع ، والحدود الخارجية وسياسة الجوار، في Da Silva Estanquiero Rocha A أوروبا المواطنة والتعددية القطبية . جامعة : Minho مركز الدراسات الإنسانية .

٢- Bejarano, J. A ما هي الليبرالية وما دورها في تاريخ الأفكار وفي المجال الاقتصادي:
(http// www. Banrep.gov. co/blaavirtual/ credencial/9102 htm. 07/06/2005)

٣- Fortuny. F.J ما سبب النفور من العولمة:
(http://www.ivsol. com/artis/moda_odio: htm)

٤- Gray. J (1994) الليبرالية . مدريد : Alianza

٥- Jardin A(1985) تاريخ الليبرالية السياسية من أزمة الحكم المطلق الى الدستور عام ١٨٧٥ المكسيك . Fondo de Cultura Economica

٦- Lopez Garrido D. Sartorius. N y Carnero C. عصبنا البايس ٢٠٠٥/٧/٢٥

٧- Manuel Calvo, J (14.5.2005) مجلس الشيوخ الأمريكي يطلب الاعتذار من السود ضحايا المعاملة السيئة (البايس) .

٨- Montes P. (1996) فوضى الليبرالية الجديدة (مدريد) Trotta

٩- Rivero Caro A. ما هي الليبرالية الجدية ؟ http://neoliberalismo

الدكتور محمد المذكوري في سطور:

Mohamed EL-MADKOURI MAATAOUI is Doctorate in Linguistics. Ph.D,. Autonomous University of Madrid, in linguistics, in 1993 with a thesis on THEORY THE TRADEUCCI?N (1st doctoral thesis). Ph.D., University Complutense of Madrid, in Philosophy in 2005 with a thesis on the image of another: WHAT IN ARABIC SPANISH PRESS (2nd PhD). Professor, Department of Linguistics Universidad Autonoma de Madrid. Former deputy director of the Department of Linguistics, Modern Languages, Logic and Philosophy of Science at the Autonomous University of Madrid. Former deputy director of the Bachelor of Translation and Interpretation Universidad Autonoma de Madrid. Director of several training courses Fund European Social. Co-founder of the Degree in Translation and Interpretation Universidad Autonoma de Madrid. Visiting Professor at the Universities of Casablanca (Morocco), Damascus (Syria), Cairo (Egypt), Lecce (Italy) and Lund)Sweden). Author of the Arabic-Spanish Bilingual Dictionary of Anaya. Author of a hundred articles on Linguistics, Translation and Critical Analysis Speech. Friend of the Royal Spanish Academy and the Ministry of Science and Technology, research projects and Acordeon Corde, linguistics computer.